# المنهج والنظرية فى مدرسة فرانكفورت

أ.د. حسن حماد

## 1- مدرسة فرانكفورت بوصفها فكر أزمة:

ظهرت مدرسة فرانكفورت إلى حيز الوجود - كما يذكر مارتن جاى - عندما صدر قرار من وزير التربية والتعليم بألمانيا فى3 فبراير 1923 بالموافقة على إنشاء «معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعية» وهو الاسم الأصلى لمدرسة فرانكفورت، لأن عبارة «مدرسة فرانكفورت» لم تستخدم إلا فى مرحلة متأخرة من تاريخ المعهد، وبالتحديد بعد عودة المعهد من منفاه الاختيارى فى أمريكا إلى فرانكفورت مرة أخرى عام 1950 (1).

وهذا التاريخ «3 فبراير 1923) يحمل دلالات سياسية وفكرية واجتماعية بالغة الخطورة، فهو يجيئ فى أعقاب عدة أحداث تاريخية فاصلة فى تاريخ البشرية: الحرب العالمية الأولى، بتداعياتها المختلفة، النجاح غير المتوقع للثورة البلشفية فى روسيا، مقابل الفشل الدراماتيكى للأحزاب الإشتراكية والشيوعية فى ألمانيا وأوروبا(2).

وقد كان لفشل الأحزاب الاشتراكية والشيوعية أصداء ونتائج مؤثرة داخل ألمانيا وخارجها. ويكفى أنه هيأ الفرصة لهتلر كى ينقض على السلطة فى ألمانيا.، واسم هتلر يعنى لمفكرى فرانكفورت، ولكل مثقفى ذلك العصر: الاضطهاد، القمع، معسكرات التعذيب، التصفية الجسدية، النفى، التشريد ... إلخ.

وقد اكتملت صورة هذا العصر الظلامى فى 22 أغسطس 1939 بتوقيع اتفاق هتلر - ستالين، لقد كان ذلك نهاية عصر، وبالنسبة لكل هؤلاء المفتونين بسحر الماركسية، والذين راودهم حلم التحرر يعد نوعاً من اليأس العميق(3).

ولاشك فى أن هذه الأحداث قد تركت بصماتها الواضحة على فكر مفكرى مدرسة فرانكفورت وامتزجت بسائر آرائهم السياسية والفكرية وجعلتهم يراجعون كثيراً

من مسلمات الفكر الماركسى. ويحاولون فى مقابل ذلك إيجاد صياغة جديدة «للنظرية نقدية» تمزج بين الماركسية والهيجلية والفرويدية عبر نص متعدد ومتفتح يسعى إلى التحرر فى كافة أبعاده السياسية والاجتماعية والاجمالية، ويكون محوره الفرد اللاممتثل، الذى لا يكف عن مراجعة أطروحاته الفكرية، ولا يتوقف عن نقد وسلب ما هو قائم.

هذا النص تحديداً هو ما أطلق عليه مفكرو مدرسة فرانكفورت اسم «النظرية النقدية» والنظرية النقدية، هى الصياغة النظرية التى تعبر عن المضمون الفكرى الذى تبناه مفكرو مدرسة فرانكفورت.

وفى هذه الدراسة سوف نقوم بتحليل معنى ووظيفة النظرية النقدية كما ظهرت عند فلاسفتها الأوائل خاصة هوركهيمر وماركيوز وأدورنو.

## 2- معنى النظرية النقدية:

ظهر مصطلح «النظرية النقدية» بشكل مقصود عندما نشر هوركهيمر عام 1937 دراسة بعنوان: «النظرية التقليدية والنظرية النقدية» وقد أوضح هوركهيمر أهمية بحثه فى المجال الدقيق للنظرية النقدية للمجتمع، وأشار إلى أن كلمة «نقدى» كما تستخدم هنا أقرب إلى النقد الديالتيكى للاقتصاد السياسى منها إلى النقد المثالى للعقل الخالص عند كانط(4). وفى العام نفسه نشر ماركيوز مقاله: «الفلسفة والنظرية النقدية» والذى أعيد نشره عام 1941 ضمن مقالات أخرى كتبها ماركيوز فى فترات مختلفة تحت عنوان شامل هو «السلب» أو «مقالات فى النظرية النقدية»، وقد شرح ماركيوز النظرية النقدية على أنها النظرية الاجتماعية القائمة على المنهج الجدلى ونقد الاقتصاد السياسى(5).

ويعد مقال « النظرية التقليدية والنظرية النقدية» بمثابة الوثيقة الأساسية فى توضيح التوجه الفكرى للنظرية النقدية، والنظرية التقليدية كما يفهمها هوركهيمر هى ما تعبر عنه بشكل واضح وصريح الإتجاهات الوضعية، فالاتجاه الوضعى كما يعبر عن نفسه فى علوم الإنسان والمجتمع يعالج نشاط الكائن البشرى على أنه شئ أو موضوع خارجي داخل إطار من الحتمية الميكانيكية، أما النظرية النقدية – المعارضة للوضعية – فهى ترفض النظر إلى الوقائع الاجتماعية على أنها أشياء، ومن ثم فهى

ترفض فكرة أن الظاهرة الاجتماعية تكون خارجية بالدرجة نفسها التى تكون عليها بالنسبة للعالم(6).

إن النظرية النقدية ترفض طابع الحياد الذى تتسم به النزعة الوضعية، وتحاول فى المقابل أن تطرح فكراً لا يفصل بين النظرية والممارسة، أو بين الواقع والقيمة، والماركسية هى الفلسفة التى تعطى أفضل توضيح نظرى لفهم الواقع الإنسانى، وتفتح الطريق أمام إمكانية التحول العملى، وهوركهيمر فى هذا الصدد يقر بانتمائه للماركسية حيث يقول: «عندما استولى هتلر على السلطة كان كثيرون يأملون فى إمكان الثورة ويحتمل أن هذا الأمل كان مجرد حلم أو وهم، ولكن الذى لاشك فيه أن هذا الحلم أو الوهم قد سيطر على أعمالى منذ عام 1933. وقد قبلت المنهج الماركسى من حيث إنه يجزم بأن المجتمع الأفضل لن يتحقق إلا بالثورة»(7). وهكذا فإن مدرسة فرانكفورت فى الأربعينيات من القرن الماضى اعتبرت نفسها ماركسية، وهذا يتضح من مقالات هوركهيمر وماركيوز الأولى، فقد كتب هوركهيمر عام 1938 يقول: «إن أى هجوم على الأيديولوجيا، إذا كان لا يقوم على تحليل الجانب الاقتصادى يعد نقداً متهافتاً، أو بالأحرى ليس نقداً على الإطلاق»(8).

والواقع أن مدرسة فرانكفورت ذاتها قد اخفقت فى الالتزام بهذه الطريقة القاطعة التى افترضها هوركهيمر للنظرية النقدية وبرغم العديد من القضايا الاقتصادية التى نوقشت من خلال أعمال المعهد ، وبالرغم أيضاً من العمل المنهجى لبولوك فى هذا المجال، إلا أن تحليل النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ظل ينصب بشكل متسع على قضايا البناء الفوقى، وكان يفتقر بشكل أساسى لمناقشة القضايا البحتة(9). على الرغم من أن الدارس للنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت لا يستطيع أن ينكر أن هناك خيطاً فكرياً واحداً يربط بين مفكرى هذه النظرية وأن هناك عدداً من القضايا والاهتمامات المشتركة، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أيضاً أن مفهوم النظرية النقدية يختلف من مفكر إلى آخر. فأدورنو مثلاً لم يكن مهتماً بالقضايا الاقتصادية، وكانت اهتماماته الأساسية تنصب على مجال الثقافة وخاصة الموسيقى والدراسات الجمالية.

والرؤية المستقبلية التى طورها أدورنو خلال تلك المرحلة لم تكن النظرية الاجتماعية الجدلية، ولكن بالأحرى ما أطلق عليه فى كتاباته المتأخرة «الديالكتيك

السلبى، والذى يمثل نقداً لكل الاتجاهات الفلسفية والنظريات الاجتماعية، وهذا ما يجعل أفكاره تبدو وكأنها شكل من أشكال «النسبية» أو النزعة الشكية التى تنكر إمكانية وجود أى قيم مطلقة أو مبادئ نهائية، على رغم أن أدرونو نفسه حاول أن يتجنب الانزلاق إلى مثل هذه النتيجة، بل إنه يذهب فى محاضرته الافتتاحية فى جامعة فرانكفورت عام 1931 والمسماة «حقيقة الفلسفة» إلى أن فلسفته «جدلية مادية»، ولكن حقيقة الأمر – كما بين بوك مورس Buck Morss فى كتابه «أصل الجدل السلبى» – إن فلسفة أدرونو ليست مادية جدلية بأى معنى من المعانى، وهو يختلف عن ماركس فى أن فلسفته لا تشتمل مطلقاً على نظرية للفعل السياسى، وعلاوة على ذلك فهو يختلف عن هوركهيمر وماركيوز فى أنه قد تجاهل إيمانهما بالإمكانية الثورية للطبقة العاملة، والواضح أن أدورنو ليس لديه أى اهتمام جاد بتحليل ماركس الاقتصادى، أو نظريته عن الطبقات ، وهو يرفض كلية فكرة إمكان وجود نظرية أو علم للتاريخ، تلك التى تعد واحدة من أهم مبادئ الماركسية(10).

إن هذه الاختلافات الواضحة بين مفكرى النظرية تجعل من الصعوبة أن نقدم تعريفاً محدداً – أو بلغة المناطقة تعريفاً جامعاً مانعاً – للنظرية النقدية، وكى نتغلب على هذه الصعوبة، فإنه يجب علينا أن نشير إلى بعض القضايا التى اجتمعت عليها اهتمامات النظرية النقدية مثل: نقد الوضعية، نقد النازية، مراجعة النظرية الماركسية، نقد ثقافة التنوير، ونقد مجتمع السلعة (أو التشيؤ)(*).

### 3- علاقة النظرية بالممارسة:

إن النظرية النقدية كما تشكلت من خلال هوركهيمر ورفاقه قد حاولت نظرياً أن تعالج علاقة النظرية بالممارسة من منظور المادية الديالكتيكية، وهذا يتضح فى تأكيد هوركهيمر على أن قيمة النظرية إنما تتحدد من خلال علاقتها بالممارسة، وقد كتب عام 1934 يقول «إن قيمة النظرية تتحدد عن طريق علاقتها بالمهام التى تتبناها فى لحظة معينة من التاريخ، وعن طريق علاقتها بمعظم القوى الاجتماعية التقدمية»(11).

لقد كان هوركهيمر يشعر بأن الفكر النقدى يمكن أن يكون باعثاً، وعاملاً محرضاً فى تقدم النضال السياسى، فالنظرية النقدية يمكن أن تساعد على استثارة الوعى الذاتى للطبقة العاملة عن طريق إقامة نوع من التفاعل بين المنظرين

Theoreticians أو العناصر التقدمية فى الحزب، وهؤلاء الذين فى حاجة إلى وعى أكثر بالتناقضات الاجتماعية[12].

وموقف هوركهيمر هنا يشبه إلى حد كبير موقف لوكاتش فى كتابه «التاريخ والوعى الطبقى»، فكلاهما يرى أن الموقف الخاص بالبروليتاريا ليس كافياً للحصول على المعرفة الكاملة، وعلى الرغم من أن هوركهيمر لم يقل بتلك النتيجة التى قال بها لوكاتش عندما أقر بأن الحزب الثورى سوف يجلب الوعى الصحيح للطبقة العاملة من الخارج، إلا أن هناك بعض التشابه بين هوركهيمر ولوكاتش يمكن استنتاجه من خلال مناقشة هوركهيمر، فهو يرى أن هناك علاجاً فاعلاً خارجياً هو المفكر النقدى، أو مدرسة الفكر النقدى التى تتعهد بمهمة نقل هذا الوعى للطبقة العاملة[13].

ومن هذا الجانب، فإن للنظرية النقدية عند هوركهيمر وظيفة اجتماعية محددة هى: «نقد ما هو سائد»[14]. وبالتالى فإن الفلسفة لا يمكن أن تكون متصالحة مع الواقع، بالعكس إنها تعارض هذا الواقع وترفضه. ومعارضة الفلسفة للواقع، على هذا النحو هو البعد النافى أو السالب للنظرية النقدية[15]، ولكن للنظرية النقدية جانب آخر هو الجانب الإيجابى أنها: «تستهدف تحرير الإنسان من العبودية». والعبودية التى يقصدها هوركهيمر هى عبودية الإنسان للأفكار والأشياء، يقول هوركهيمر: «الهدف الأساسى من هذا النقد هو الإحالة دون فقدان الإنسان لذاته فى تلك الأفكار، والأنشطة التى يسعى النظام السائد لغرسها فى أعضاءه.. إن الفلسفة تواجه التناقضات التى يجد الإنسان فيها نفسه متورطا إلى حد التعلق بأفكار ومفاهيم منعزلة فى الحياة اليومية.. إن هدف الفلسفة الغربية.. إلغاء ونفى إحادية البعد فى نظام آخر للفكر أكثر شمولية، وأكثر يسراً، وأكثر ملائمة للواقع»[16].

وبرغم أن «النظرية النقدية» تنتمى إلى ما يسميه النقاد بتيار الماركسية الجديدة، أو اليسار الجديد، إلا أننا لا نستطيع أن نصفها ببساطة على إنها نظرية ماركسية، فبرغم تصريحات هوركهيمر، ماركيوز، وأدورنو المتكررة حول تشيعهم للماركسية، إلا أن حقيقة الأمر، إنهم لم ينظروا قط للماركسية، بوصفها نموذجاً يحتذى ولم يتخذوا منها نظرية للممارسة، وإنما اتخذوا منها فقط بداية أو منهج لتحليل ونقد الحضارة الصناعية المتقدمية، وهذا منحهم حرية فى الاستفادة من منابع فكرية أخرى، غير ماركسية، كالهيجلية، والكانتية، والوجودية، والفرويدية[17].

من ناحية أخرى، سيطر هاجس الخوف من الخضوع للسلطات، أو الاحتواء فى الواقع القائم على مفكرى المدرسة، بحيث جعلهم هذا الأمر يقاومون بشدة فكرة الانخراط تحت لواء أى حزب سياسى، ولذلك كان موقفهم من الحزبين الكبيرين فى ألمانيا: الحزب الشيوعى، والحزب الاشتراكى هو موقف نقدى فى أساسه[18].

إن مدرسة فرانكفورت برغم اهتمامها بالقضايا السياسية والثورية، إلا أنها اخفقت فى الالتزام بالنظرية الماركسية، وظل تحليلها ينصب بشكل متسع على قضايا البناء الفوقى، ويفتقر بشكل أساسى لمناقشة القضايا الاقتصادية البحتة[19]. ولا يستثنى من هذا الأمر سوى «فريدريك بولوك» كما لاحظ «زولتان تار»[20].

ويبدو أن مدرسة فرانكفورت تكتفى بأن تعتبر نفسها حركة ثقافية ثورية، وهى فى نفس الوقت ترفض أن تكون مجرد نزعة إصلاحية، تقوم بترميم الواقع من داخله، بل هى حركة «نفى» تصون الحاجة إلى تجاوز كامل للواقع القائم، وهى مع ذلك لا تزعم أنها تقدم لنا يوتوبيا إيجابية[21].

إن مدرسة فرانكفورت فى صورتها النهائية هى تعبير عن فكر مأزوم، فهى بحق تعبر عن أزمة المثقف المعاصر فى عالم اختفى منه اليقين، واختلطت فيه المعايير وتضاربت المشاعر. إن مفكرى مدرسة فرانكفورت: هوركهيمر، ماركيوز، أدورنو، فالتر بنيامين.. وغيرهم من المثقفين القانطين، والباحثين فى نفس الوقت عن شعاع من أمل، هم رموز تجسد تلك الأزمة، فقد أقر معظمهم تقريباً، بسوداوية الواقع القائم، وانحسار الأمل، واستحالة الحلم الثورى (على الأقل فى الوقت الراهن).

**4- ماذا يتبقى من النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت:**

ترى هل استطاعت النظرية النقدية أن تفى بوعودها، وأن تصبح الأيديولوجية الثورية لكافة التيارات والجماعات المقهورة والمرفوضة فى المجتمع الغربى المعاصر، وفى العالم الثالث، خاصة جماعات الزنوج والمهمشين، والنساء، والأقليات المضطهدة والمرفوضة؟

**هل استطاعت النظرية النقدية من خلال تبنيها للجدل السلبى فى معناه الهيجلى - الماركسى أن تتحول من قوة سلب ونفى بالمعنى الفكرى إلى قوة رفض واحتجاج بالمعنى السياسى؟**

**الإجابة - من وجهة نظرى - بالنفى. وبالرغم من أن مدرسة فرانكفورت قد**

حققت قدراً من التفاعل بينها وبين بعض الجماعات السياسية كما حدث فى الستينيات من القرن الماضى عندما تأثرت ثورة الطلبة بأفكار ماركيوز، إلا أن هذا التفاعل لم يكن كافياً لكى تصبح النظرية النقدية بمفردها أيديولوجية الاحتجاج والرفض فى القرن العشرين، ولم تستطع قوة الدفع الثورى الكامنة فى النظرية النقدية أن تتجاوز الطابع الأكاديمى لها، ومع ذلك فلا يجب أن نطلب من النظرية النقدية كتيار فلسفى أن تتحول إلى الفعل بصورة مباشرة. فالأفكار لا يمكن أن تتحول إلى قوة فعل ما لم تتبناها طبقات أو جماعات اجتماعية، والفلسفة لا تصل إلى ذلك إلا من خلال العديد من الوسائط والوسائل الأخرى. وفى مقابل ذلك لا يستطيع أحداً أن ينكر أن النظرية النقدية قد تنبأت فى وقت مبكر بشيخوخة النظرية الماركسية التقليدية، بمثل ما تنبأت بنهاية أسطورة البروليتاريا بوصفها الطبقة التى تحمل بيديها مفاتيح الخلاص من الجحيم الرأسمالى، أضف إلى ذلك أن نقد النظرية النقدية لثقافة السلعة ولزحف التشيؤ على حياة الإنسان المعاصر ما زال أكثر إلحاحاً فى وقتنا الراهن من أى وقت مضى.

إن خطورة النظرية النقدية لا تكمن فقط فى كونها مرحلة أو لحظة من لحظات تطور الحضارة الغربية، ولكن خطورتها تكمن فى أنها تمثل العقل الغربى متمرداً على نفسه ومراجعاً لأطروحاته ومسلماته، وهذا ما يفتقده العقل العربى الذى مازال يعانى حتى كتابة هذه السطور من عقدة النرجسية وعبادة الذات.

إن تأكيد النظرية النقدية على النقد هو بحد ذاته أمر مطلوب سواء كان هذا النقد فكرياً أو سياسياً. فالتأكيد على ممارسة النقد إنما ينطوى على رغبة فى تجاوز الواقع، وعلى إيمان راسخ فى أن التطور هو قانون الوجود. فالنقد يعنى عدم الجمود أو الركون للوضع القائم، وهو يعنى أيضاً أن الحياة تنطوى دائماً على النقص وإن الاكتمال فرضية مستحيلة فى دنيا الواقع. والنقد من هذا الجانب دعوة لا تمل إلى ضرورة التغيير. ولعل المأزق العربى الراهن أحوج ما يكون إلى مراجعة الكثير من قيمنا الاجتماعية والثقافية والسياسية. ويتطلب من مثقفينا أن يكون لديهم الجسارة الكافية لتعرية الذات الحضارية، والقدرة على تطهيرها من كل ما استقر فيها من أوهام وأخطاء ومغالطات.

إننا نحتاج إلى ممارسة النقد فى حياتنا اليومية، وفى معاهدنا العلمية، وفى قراءتنا للتراث، وفى نظرنا للمستقبل. وبدون ممارسة هذا النقد سنرتد مرة أخرى إلى شعوب تعيش على هامش التاريخ أو إن شئت خارج التاريخ.

## المراجع


Mart Jay: The dialectical Imagination Little, Brown and -1 Company, London, 1973. P. 10.

Ibid. -2

P. 3.

David Hreld: Indroduction to Critical Theory, Hutchinson, -3 London, 1980. P. 19.

Max Horkheimer: Traditional and Critical Theory (in) -4 Horkheimer: Critical Theory, Selected Essay, Trans By Matthaw J O'Connell and Others, Herder and Herder. Nre York, 1972, PP. 196-197.

Phi Slater; Origin and Significance of the Frankfurt School. -5 Routledge & Kegan Poul, London, 1980, P. 26.

Bottomore: The Frankfurt School., Travistock Publication, -6 London and New York, 1984, P. 16.

7- جيرار جان: من فرانكفورت إلى فرانكفورت، دراسة منشورة فى مجلة المنار، العدد الحادى عشر، نوفمبر 1985، ص167.

Slater: Op. Cit., P. 47. -8

Loc. Cit. - 9

Bottomore: Op. Cit., P. 18. - 10

(*) للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز، دار التنوير، بيروت، 1992.

Slater: Op. Cit., P. 15. -11

David Held: Op. Cit., P. 50. - 12

Bottomore: Op. Cit., P. 17. - 13

Horkheimer: The Social Function of Philosophy (in) - M.H.: Critical Theory. P. 264. 14

Ibid. P. 257. -15

Ibid, P. 265. - 16

Leszek Kolakowshi: Main Currents of Marxism. Trans - By P.S. Falla, Oxford University Press, 1978. P. 341. 17

Loc. Cit. -18

Phi Slater: Op. Cit., P. 47. - 19

Zoltan School. The Critical Theories of M Horkheimer - and T.W. Adorno, Schocken Books. 1985. P. viii. 20

Kolakowski: Op. Cit., P. 342. -21

obeikandl.com